الجاحظ تحت مجهر شفيق جبري

عبداللطيف الأرناؤوط

يؤكد « شفيق جبري » أهمية الأساليب الحديثة في دراسة الأدب ، لأن « الأسماع قد مجّت ما تردد من سنين طويلة ، وكانما القلوب قد لفظت ما تمضغ » فكان كتابه عن (الجاحظ معلم العقل والأدب*) تطلعاً الى التجديد في الدراسة الأدبية والنقد وتراجم الرجال ، وكان همه تجديد النقد الأدبي الذي جمد عند أحكام القدامى الجزئية أو المجردة .

على أن « شفيق جبري » لا يقيم تجديده على ما سبق أن قدمه النقاد ودارسو الأدب من كتب ودراسات عن الجاحظ ، وإنما يؤثر أن يدرسه معتمداً على كتبه وآثاره بالذات ، محللاً نصوصه الأدبية والعلمية ، دون الاتكاء على آراء مَنْ سبقه من دارسي هذا الأديب العملاق الذي كان موسوعة علمية وأدبية ، ولا يخفى أن القدامى والمحدثين من الدارسين كانت لهم أحكام وآراء في أدب الجاحظ ، ومنهم المستشرقون من أمثال : « شارل بيللا » . غير أن « شفيق جبري » لا يستعين بهذه الآراء ، ولا ينطلق منها ، مؤثراً أن تكون ترجمته للجاحظ عملاً ذاتياً بحتاً . أما السمة الثانية في دراسة الجاحظ فتتجلى في إيثاره الاعتماد على المصادر العربية الخالصة ، فهو يستمد وقائع عصر

(★) الجاحظ معلّم العقل والأدب . تاليف : شفيق جبري ، صدر في عام ١٩٣٢ م ـ ١٣٥١ هـ في ٢٥٢ صفحة من القطع المتوسط .

الجاحظ وخصائصه من المراجع العربية، ولا يستعين بآراء النقاد الغربيين من المستشرقين إلا في معرض تأييد بعض آرائه العامة في الفن والأدب ، حيث تتلاقى في فكره وذوقه النقدي مؤثرات الأدب والنقد الفرنسي وثقافته العربية الواسعة .

ولا يخرج منهج « جبري » في ترجمة الجاحظ عن منهجه في دراسة «المتنبي» ، وهو منهج اختطه لنفسه وتحدث عنه في كتابه « أنا والنثر » ، منهج" يجمع بين الأصالة والتجديد ، ويقيم الترجمة على أصول دقيقة يلتزمها في كل ما كتب في هذا المجال .

فكيف بدت صورة الجاحظ تحت مجهر شفيق جبري ؟ وهل كانت حقا صورة صادقة لعبقرية عصيّة على الدراسة بسبب تعدد آفاقها واتساع ميادين الابداع لدى صاحبها ؟

في تقديري أن نجاح كتاب «جبري» عن الجاحظ يرجع الى عوامل عدة منها دقة المنهج الذي اختاره لنفسه والتزمه في تقديم صورة الجاحظ ، ويمكن أن نضيف اليها ميل « جبري » الشخصي واعجابه الشديد بالجاحظ ، ووجود سمات مشتركة بين شخصية جبري والجاحظ . وقد وجد فيه صورة نفسه، من حيث ولع كل منهما بالعلم ، وانصراف كل منهما الى البحث والتحليل ، واعلاء شأن الملاحظة ، والميل الى النقد، والولع بالتهكم ، واحترام المنهج العلمي في كل عمل يصدر عنهما ، وهي صفات مشتركة بين الأديبين فجّرت في نفس شفيق جبري دوافع متابعة الجاحظ والاعجاب به ، فضلاً عن براعة كل منهما في تقديم فكره وعرضه بأساليب تمتاز بالقدرة على ايصال الفكرة واضحة جلية دون تعقيد أو عسر .

يشير شفيق جبري الى الدوافع التي حدت به لاختيار الجاحظ ميدانا للدراسة فيقول : انه كان يرغب بعد أن فرغ من دراسة المتنبي أن يقدم للناس دراسة عن ابن المقفع ، لأنه أول كاتب استظهر من كلامه ما يعين على تقويم البيان، وصحة التعبير ، وجودة السبك ، لكنه اكتشف أن الجاحظ «أبعد مذاهب، وأوسع آفاقاً » حتى ذهب في الولع به كل مذهب ، وقد استوقفه من كلامه ما قرأه من كتابه « الحاسد والمحسود » ففتن بهذا الفصل الفتنة كلها ، وأما الدافع

الثاني الذي دفعه الى الكتابة عنه فيتجلى في رغبته أن يدافع عن الاسلام بعد أن قرأ كتاباً عنوانه « الطريقة الأدبية للمستشرق كاراديفو » ذهب فيه الى أن الاسلام والمسلمين يرون أن البحث العلمي لا طائل فيه ، وأنه قد يؤدي الى الكفر ، فلما قرأ كتب الجاحظ العلمية أيقن بطلان هذا الزعم ، وتكشفت له أساليب الجاحظ في التحقيق العلمي واعتماده التجربة في العلم منطلقاً للحقيقة وميله إلى الاستقصاء . وعبقرية الجاحظ ثمرة من ثمار الحضارة الاسلامية التي أفرزته ، وهذا ما يثبت بطلان تلك التهمة الشنيعة التي يلصقها ذلك المستشرق بالاسلام والمسلمين . كانت إذاً تلك دوافع « جبري » لتأليف كتابه عن الجاحظ الذي ملك عليه لبّه حتى ليقول : « لقد فرغت من قراءة هذه الآثار ، أي آثار الجاحظ ، وفي البال خاطر واحد لا أنساه ، وهو أني ما قرأت سطراً من أي كتاب من كتبه إلا استوقفتني قراءته ، وحملتني على التفكير ، فاذا أردتم أن تحيطوا بشيء من عبقرية لغتنا فبادروا الى كتب الجاحظ التي تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً . »[1]

وفي الفصل الذي عنوانه : « نواحي الجاحظ » يحدد جبري منهجه في رسم صورة أبي عثمان ، فيشير الى أنه سيبدأ أولاً بالحديث عن وطن الجاحظ وحنينه إليه ، ثم يتناول حياته (أهله وثقافته وأعماله ومَنْ خالط من الناس والأسفار التي قام بها) فاذا فرغ من ذلك تعرّض للكلام على ثقافته وأساتذته وأثرهم فيه ، ثم يبرهن أن الجاحظ كان ابن عصره الذي اتّسم بحرية الفكر واتساع الثقافة وتشعبها وآثارها في معتقدات الناس ، واختلاط العرب بالأعاجم ، وينفذ من ذلك كله الى تحقيق الجاحظ العلمي واعتماده التجربة والسماع ، ثم يتحرى عن دينه ومعتقده وصلته بالاعتزال ، ومدى تدينه وفهمه الدين ، ومذهبه في التفسير والتأويل ، وولعه بالتهكم وميله الى الاضحاك ، ومذهبه في النقد الأدبي ، وميله الى الأدب المجرد ، وتحرره من قيود السجع والصنعة في التعبير ، وواقعيته في رواية الأخبار وحرصه على سرد الواقعة بلغة الاعراب ، وعنايته بالمناسبة بين المعاني والألفاظ وولعه بالتنقيح دون إفراط ، لينفذ من ذلك كله الى تفكيره ، وفنه وتصويره ، ولغته التي يحرص فيها على إنزال اللفظة منازلها وحرصه على إضفاء الحسية في تعابيره .

وهذا المنهج كما يتبين لنا منهج شامل، تأثّر فيه شفيق جبري بالدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة دون أن يغفل الينابيع التراثية التي استقى منها مادته ، فلنرافق جبري في رحلته مع الجاحظ في فصول كتابه الممتعة ، التي تكشف عن ثقافة واسعة وتنقيب دقيق في ثنايا الكتب ، وذكاء في اختيار مادة دراسته، وتحليلها لابراز صورة الجاحظ حيةً ناطقةً .

* * *

وطن الجاحظ :

ولد الجاحظ في « البصرة » ، وهي مدينة أسسها عتبة بن غزوان معسكراً للجيش ، وسميت بالبصرة لصلابة أحجارها أو لوعورة أرضها ، وذهب بعضهم إلى أنها معرّبة لكلمة (بس راه) الفارسية بمعنى ذات الطرق الكثيرة ، وإن كان المجمع عليه أنها تعني الشدة والصلابة في الأرض ، وكان الجاحظ شديد الحنين الى البصرة لكنه نظر إليها نظرة العالم لا الشاعر فتحدث عن ذبابها وزرعها ، وكان يدين لها بالولاء وهو الذي يقول : **أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي، وملتي ولغتي، وجريدتي وجيرتي وهم العرب** » وفي هذا الكلام عروبية واضحة ووطنية صادقة ، وهو ينقل ما قيل عن البصرة في كتبه نقل المعجب بها ، فيثبت قول خالد بن صفوان في البصرة: «نحن أكثر الناس عاجاً وساجاً، وخزاً وديباجاً وبرذونا هملاجاً، وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب، أوله الرطب وأوسطه العنب وآخره القصب .. »(٢) .

وفي البصرة نشأ شيوخ الأدب واللغة كالأصمعي وأبي زيد الأنصاري وخلف الأحمر ، والنضر بن شميل ، وقطرب ، وسيبويه ، والمازني والمبرد ، وابن دريد ، فمنها طلع فكر العرب ، وكان للجاحظ نصيب من هذا الفكر .

وشفيق جبري لا يفصل كثيراً في تصوير الحياة الثقافية والفكرية التي كانت في البصرة زمن الجاحظ كما فعل (شارل بيللا) في كتابه ، لأنه آثر أن يقدم مناحي تلك الحياة الفكرية في فصول كتابه عند الحديث عن جوانب حياة

الجاحظ ، وذلك ألصق بأصول المنهج الذي اختاره ، وإن كانت صورة تلك الحياة جاءت مشتتة لا تنتظمها وحدة ولا تكامل ... فاذا فرغ من ذلك كله تحول الى حياة الجاحظ فيها ، ويأسف «جبري» لأن المعلومات المتوافرة عن حياة الجاحظ لا تشفي الغليل إذا قيست بما يعرفه الفرنجة عن أدبائهم . ذكروا أنه عاش نيفاً وتسعين سنة ، وروى أبو بكر في تاريخ بغداد أنه ولد سنة ٢٤٥ هـ وقيل سنة ٢٣٦ هـ ، فتاريخ ولادته مضطرب أما وفاته فكانت سنة ٢٥٥ هـ وقد شكا كبر السن في آخر عمره . أما اسمه فهو عمرو بن بحر بن محبوب كناني ليثي طيبة أو مولى ، وكان له أقارب عاشوا بعده منهم (يموت بن المزرّع ، والجاحظ ابن خال أمه) على روايته ، وكان أديباً إخبارياً له مُلح ونوادر .. أما عن خلقه فكان الجاحظ مشوّه الخلق، لُقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وعُرف بالحدقي ، وقد اتصل بالمتوكل فلما رآه استبشع منظره ، وأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه عن بلاطه .

درس الجاحظ في صغره العلم بكتاتيب مدينة البصرة وكان يتردد إليها وهو ابن عشرين ، وروي أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان في فترة تعليمه، وقد برمت أمه بانصرافه الى العلم حتى قدمت له يوماً طبقاً فيه كراريس بدل الطعام ، فدخل الجامع مغتماً وفيه « موسى بن عمران » ، فلما وقف موسى على حاله أدخله منزله ، وقرّب اليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، واشترى له الدقيق وغيره وسيّره الى داره ، واتصل بابن الزيات فأقطعه أربعمائة جريب في الأعالي ، ذلك أن حياة الشظف لم تطل له ، فقد جمع مالاً من عماله، سأله ميمون بن هارون: ألَكَ بالبصرة ضيعة ؟ فتبسّم وقال : انما أنا وجارية ، وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب « الحيوان » الى محمد بن عبدالملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » الى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب «الزرع والنخل» الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد وتسميد !! وكانت له مشاهرات ينالها من الخليفة فوق هذا كله .

كان الجاحظ شديد الكره للعمل في وظائف الدولة ، فقد قلّد أعمال ديوان الرسائل أيام المأمون إلا أنه استعفى فأعفي ، وقد أُثر عنه شدة اعتداده بنفسه وثقته بعمله ، ومن كان هذا طبعه يصعب عليه أن يخضع لقيود العمل الوظيفي والاذعان للرؤساء ، يقول في ذلك : « وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقاربه بخدمته فان أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق[٣] » ، وقد روى ابن عساكر عنه رواية ان صحت فانما تدل على طموحه الفائق وشعوره بأنه أعظم من وزراء الخليفة قال :

« دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : حالي أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري، ويؤثر الخليفة الصلات اليّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب أفخرها ،وأجلس على ألين الطبري ، وأتكيء على هذا الريش ، ثم أصبر حتى يأتي الله بالفرج ،فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة اليّ ، ويعمل محمدبن عبد الملك بامري ، ويختلف اليّ ، فهذا هو الفرج !.. »

وقد ظهرت عليه دلائل النعمة والبحبوحة في داره ، فكان يسلي نفسه بزراعة الأشجار فيها وتعليق الأبواب الثمينة .

وكان الجاحظ ملازماً محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم ، فلما مات المعتصم وقام بالأمر ولده « الواثق » ،أقر ابن الزيات في الوزارة ، فلما مات الواثق وخلفه المتوكل نقم عليه لأنه أشار بتولية ابن الواثق ، فحبسه ثم طرحه في تنور كان ابن الزيات قد أوصى بصنعه لتعذيب الناس ، وخلفه في الوزارة « أحمد بن أبي دواد » فلم ينج الجاحظ من شره لصلته بابن الزيات ، فجاء به مقيداً ، وقال له : « والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوىء ... »فقال له الجاحظ : خفض عليك ، أيّدك الله فوالله لأن يكون الأمر لك علي ، خيرمن أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن من ان أحسن فتسيء ،وأن تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام منك » ، قال ابن أبي دواد :قبحك الله ، ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ،ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر .. ثم أمر بحدّاد ، فقال الجاحظ ، أعز الله القاضي ليفكّ عني أو ليزيدني ؟ ، قال : بل ليفكّ عنك ، فلما جاء الحداد غمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق

الجاحظ ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة بلحظة ، فان الضرر بساقي وليس بجذع ولا ساحة ، فضحك الوزير ومن كان في المجلس • عاشر الجاحظ في حياته طائفة من أكابر القوم وصحبهم في أسفارهم ومن جملتهم الفتح بن خاقان ، وكان الفتح واسع العلم كأنه خزانة كتب ، ومدح جماعة منهم ، وكان الجاحظ واسع الأسفار ، جوّاب آفاق ، وهو يثني على السفر في كتبه ، فيرى في الضرب في مناكب الأرض « مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال » وقد اكتسب الجاحظ من أسفاره خبرة غنية بالناس والطبيعة ، فزار أنطاكية ودمشق وربما سافر الى مصر ووصف ما مرّ به من أمور في رحلاته وصف عالم لا شاعر ، فتحدث عن منارة مسجد أنطاكية ووصف براغيث دمشق وعقارب مصر ، واستقر أخيراً بالبصرة في آخر أيامه ، وقد أصيب بالفالج فأرسل المتوكل في طلبه فقال للرسول: « وما يصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل وعقل حائل » • وكان لمرضه أثر في انتاجه ، فهو يعتذر للقارىء في كتاب « الحيوان » ان صادف في كتابه حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، لعلته الشديدة ، وقلة الأعوان ، وطول الكتاب ، وكان موته بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ ، قيل ان مجلداته سقطت عليه وهو عليل فقتلته •

هذه لمحة عن حياة الجاحظ ذلك العبقري الموسوعي الذي نذر نفسه للعلم نحو قرن من الزمن ، وجعل طموحه فيه ، مع اعتداد بالذات وثقة بالموهبة تقربان شخصيته من شخصية المتنبي •

* * *

ثقافة الجاحظ :

امتلك الجاحظ ثقافته الموسوعية من المثابرة على حضور حلقات العلم في مجالس شيوخه في البصرة فكان منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري • وأخذ النحو عن الأخفش ، وكلهم من أعلام الأدب واللغة ، ودرس علم الكلام على « النظام » وهو أشهر متكلمي عصره ، وكان النظام من

زعماء المعتزلة ، ويبدو لنا الجاحظ معجباً بأساتذته ، يتحدث عنهم ، وينقد أحياناً مناهجهم وعلومهم ، سأل الأخفش يوماً : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلِمَ لا تجعل كتبك مفهومة ؟

أجاب الأخفش : « أنا رجل لم أضع كتبي لله ، وليست هي من كتب الدين.. وانما كانت غايتي المنالة »(٤) . وهو يقول فيهم :

« طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب . فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن ابن وهب ومحمد بن عبدالملك الزيات » .

وكان الجاحظ معجباً بأبي اسحق بن سيار النظام حتى ليقول فيه : « الأوائل يقولون : في كل ألف سنة يخرج رجل لانظير له ، فان كان ذلك صحيحاً فهو أبو اسحق النظام » وهو يصفه بالأمانة العلمية والصدق ، ولأستاذه النظام آراء في الدين والفلسفة والعلم ، وقد انفرد عن أصحابه المعتزلة بمسائل وتبعه جماعة عرفوا بالنظامية ، منها استواء الطاعات واستواء أهلها في الثواب ، واستواء المعاصي ، واستواء أهلها في العقاب ، وكان يرى أن الأطفال يدخلون الجنة ، ويعترض على كثير من آراء المفسرين ، وكان مطبوعاً على البحث في أصل كل شيء ، ولعلّ الجاحظ قد تأثّر به من هذا الجانب الذي يحكم العقل في كل مسألة .

وغير هؤلاء الأساتذة خالط الجاحظ أدباء عصره كابن الزيات والفتح بن خاقان ، وقرأ كثيراً من الكتب في الطب وعلم الكلام فضلاً عن كتب الأدب واللغة والأخبار والنوادر والغرائب وكان بعضها مترجماً ككتاب الفراسة لأقليمون ، وطباع الألبان لماسرجويه ، وكتب المنطق لأرسطو ، وكتاب أقليدس ، ونقل عن جالينوس وغيره ، مما وفّر له ثقافة موسوعية شاملة ، ولم تخل ثقافته من عناصر فارسية ويونانية وهندية ، لكنه كان يرى « أن العرب أنطق ولغتها أوسع ، وأن لفظها أدلّ ، وأن تقسيم كلامها أكثر ، والأمثال التي ضربت أسير ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاص فيها . » .

تلك هي ثقافة الجاحظ : ثقافة شاملة متنوعة تأخذ من كل علم بطرف ، ولا تتخير أو تصطفي ، قال أبو هفان :« لم أرَ قط ولا سمعت مَنْ أحب الكتب والعلوم أكثر مِنَ الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى انه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر ٠» ٠

ويقول الجاحظ في وصف الكتاب «وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لناالأوائل من كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب ، وفتحنا بها كل مستغلق ، فجمعنا قليلنا إلى كثيرهم ، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم لما حسن حظنا من الحكمة »[٥] ٠

لكن الجاحظ لم يكن ناقل معرفة فحسب ، فانه من أقدر الكتّاب على الافادة مما يقرأ ، ومن أكثرهم ربطاً بين المعارف التي حصلها ، والأخبار التي سمعها ، فهو لم يكتف بتقديم خلاصة عن ثقافة عصره بل ألف بينها في نظرات تحليلية وتقويمية قد لا تكون شاملة لكنهاتكشف عن روح العالم المدقق والأديب الذوّاقة ، فمن أين استمد تلك الطاقة الفكرية والشجاعة الأدبية في تناول مسائل لم يسبقه إليها أحد أو سبقه إليها آخرون لكنه أغناها ومنحها أبعاداً علمية جديدة ؟

★ ★ ★

عصر الجاحظ :

إنه عصر الجاحظ ، ذلك العصر الذي يصفه هو نفسه بأنه عصر العلم والثقافة والحرية الفكرية ٠ يقول : « ينبغي أن يكون سبيلنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكبر مما وجدنا » ٠ ويضيف الى قوله : « وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقليد ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم ٠ »[٦] فعصره هو عصر الحرية الدينية التي سمح بها المأمون ، فكان يجادل الناس في أمور الدين ويسمح لهم بالدفاع عن معتقداتهم ،

في حين كان رجال الفكر زمن المعتصم والمتوكل يتعرضون لتهمة الزندقة إذا بدر منهم ما يخالف الشرع أو العقيدة ، وكان المأمون يكره الجدل الذي يقوم على الشتم والسباب والتسفيه لأنه يكشف عن عيّ بالمجادل ولؤم ، وقد امتدت هذه الحرية إلى تناول مسائل خطيرة من الدين ، والتفسير ، حتى كان المجوس أنفسهم يعارضون علماء المسلمين دون حرج .

وكان الاعتزال الذي قام في عصر الجاحظ وليد حرية الفكر هذه ، وادت حرية الفكر الى الاستفاضة في التطرف الديني والزندقة ، حتى وصف الجاحظ الشعوبيين بتتبع المطاعن على الدين فقال : « يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف من الاسناد من روايتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ويسألون عنا عوامنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين . » .

وقد نال الجاحظ من هذه الحرية نصيباً ، فكان يعلق على آراء المفسرين بجرأة أو يبسط حجج الفئات المتطرفة ، وكان معتزلياً في مذهبه ، يحكّم العقل في مسائل الايمان ، وينتقد تفاسير بعض المفسرين مما يتعارض والعقل والمنطق ، فليس من المستغرب أن يُتهم في دينه ، وقد تكلم عن آراء الزنادقة في كتبه وبسط وجهة نظرهم بروح علمية .

وعصر الجاحظ يعد انقلاباً فكرياً في شؤون الحياة والفكر ، ولذلك لم يغفل الجاحظ عن شيء مما كان يجري في أيامه ، تراه يلمّح الى النقل والاقتباس عن الأمم الأخرى ويبيّن أثرهما في الثقافة ، ويتحدث عن عيوب الترجمة والتزيد فيها ، والشروط التي يجب أن تتوافر في المترجم ، ويقول :

وينبغي أن يكون (أي المترجم) أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء عليه ، ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعترض عليها . » .

وقد امتدت حركة الترجمة في عصره إلى التراث اليوناني الذي تغلغل في الشرق بعد فتوح الاسكندر ، وكان له أثره في الفلسفة والطب والرياضيات . وإلى جانب ذلك العلم المنقول لم يخل عصر الجاحظ من خرافات نقلها في كتبه وفند كثيراً منها ، من ذلك الاعتقاد بأن الخنافس تجلب الرزق للانسان ، وأن

الرجل طويل الأذن يعمر طويلاً ، وأنلبس النعال السود يورث النسيان · وهي معتقدات شعبية لا تستند إلى علم، وقد شاعت في الحضر وبين الأعراب · فنقلها الجاحظ مصوراً عصره في وجهيه العلمي والخرافي أتمّ تصوير ·

الجاحظ المحقق :

وفي حديث « شفيق جبري » عن نزعة الجاحظ للتحقيق ينقل رأياً للمستشرق (كارادي فو) في كتاب الحيوان ، فقد ذهب ذلك المستشرق إلى أن كتابه الحيوان لا يقوم على بحث علمي ، وإن كانت قراءته تمتع الانسان ، فيردّ جبري على هذا الرأي الذي يجرد كتب الجاحظ من قيمتها العلمية ، مستنداً إلى الشروط التي اشترطها الغربيون أنفسهم في العالم، ومنهجه وطريقته ، ويثبت أن الجاحظ جمع بين الملاحظة ودراسة الظواهر الحسيّة وبين التجربة ، بل كان يرى عدم الركون إلى الحواس لأنها تخدع « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول »[٢] فكان لا يقبل الحقيقة إلا إذا ثبتت بالأدلة وخرجت بالبرهان ، وكان يميل إلى الشك وعدم التسليم شأن ديكارت ويقول: « إعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له »[٨] فمنهجه في البحث العلمي يُعدّ الأساس الذي بنى عليه « باكون وديكارت » منهجهما في البحث، وكان يمزج علمه بروعة الفن ، ويطري جفاف العلم بطرائف الأدب ···· وفي كتابه الحيوان أمثلة لا تُحصى من تحقيقاته العلمية وتجاربه الحياتية · فقد سبق الجاحظ علماء الغرب في الحديث عن أثر البيئة في الكائنات ، بل سبقهم في الحديث عن تنازع البقاء ومبدأ الصراع من أجل الحياة الذي يدعيه الغربيون حين يعرضون سلاسل ذلك الصراع ، ودوره في إقامة التوازن في الطبيعة · يقول :

« ومن العجيب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب ويأكله ، ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها ، وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية ، والحية تصيد العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله ، والجراد يلتمس فراخ الزنابير ، وكل شيء يكون أفحوصة على المستوى ، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها ، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها· »[٩]

ولئن كان الجاحظ لم يكتشف في علم الحيوان مكتشفات علمية فقد لخّص معارف عصره وبحث ونقّب معتمداً التجربة والعيان ، من ذلك أنه كان يقطع طائفة من أعضاء الحيوان ويدرس أثرها في الحياة ، ويراقب سلوكها ومن ذلك تجربته على الأفاعي ، يقول :

« والأفاعي تكره ريح السنّاب والشيح ، وتستريح إلى نبات الحرمل ، وأما أنا فاني ألقيت على رأسها وأنفها من السنّاب ما غمرها فلم أرَ على ما قالوا دليلاً » ومن ذلك محاولته ذبح الحيوان ليفتش جوفه وقانصته ، ودفنه الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته وقد لا يكتفي بالتجريب بل يتثبت من تجارب غيره ، وكان يستخدم مواد كيماوية ليعلم مدى تأثيرها في الحيوان كاستعمال الكبريت الأصفر والقطران، وقد يجمع بين حيوانين في قارورة ليعرف سلوكهما ، وهذه الأساليب ترفعه إلى مصاف العلماء في عصرنا الذين لم يتجاوزوا كثيراً في منهجهم العلمي الطرائق التي سلكها . أما السماع فكان يعتمده طريقاً للمعرفة ، لكنه لم يكن يقرّه قبل التثبت منه بالتجريب ، فينقل عن ابن الكلبي وأحمد بن المتن وسواهما . وقد يسمع الخبر فيثبته دون رأي فيه ، أو يبدي رأيه فيه ، إذا ارتاب فيه كقوله :

« وسمعت حديثاً عن شيوخ ملاحي الموصل وأنا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم ، وزعموا أن الليث ربما جلّل قَلْس السفينة فيتشبث بها ليلاً ... » . وقد ينقل عن جماعة يثق بمعرفتهم كقوله : ودخلت أنا مرة وحمدان الصباح على عبيد الشوينزي فاذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً وعشرون فأراً فاذا هي تقتتل ، فخيل إليّ أن تلك الفئران قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع ، ورأيت العقارب قد كلّت عنها وتركتها »[١٠] .

وكان يستعين في تحقيقاته العلمية بالقياس والتعميم ، وان كانت معارفه العلمية مبعثرة لا تنتظمها قوانين عامة ، لقلة فرص تجريب الظاهرة العلمية في أكثر من مكان ولأكثر من مرة ، لكن أحكامه تدلّ على نفاذ عقله . واعتماده الشك قبل اليقين ، وقد نبّه على كثير من الخرافات وغرائب الأخبار ،

ودعا إلى الحذر من الكذابين والمتزيدين كقوله : « والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته ... وهذا القول بالخرافة أشبه »[11] فكان نقده يهدف الى الوصول إلى الحقائق والحقيقة ضالة العالم . وقد يعمد الى التثبت من الحقيقة بمراقبة سلوك الحيوان الذي يدرسه ويحاول تعليل هذا السلوك بقانون عام ، كرأيه في أن الشاة تنقاد للسبع، والدجاجة ترمي بنفسها لابن آوى بدافع الجبن وقلة الحيلة ، وكثيراً ما يستعين بحواسه للتثبت في الحقائق فيشمّ أو يذوق أو يعاين أو يلمس ، أو يتحقق صحة الواقعة بالتجريب على ذاته ، وبلون من المغامرة .

* * *

عقيدة الجاحظ :

ثمة صلة واضحة بين عقيدة الجاحظ المعتزلية ونزعته العقلية ، فالمعتزلة يحكمون العقل في الأمور الايمائية وبخاصة في التفسير ، ولذلك سمّاهم الفرنجة بالمفكرين الأحرار ، فقد قالوا بقدم الله تعالى ، وقالوا : ان الخالق قادر بذاته ، وعالم بذاته ، وصفاته تعالى ليست قائمة بذاتها ، ونفوا رؤية الله بالأبصار ، ونفوا التشبيه عنه من كل وجه ، مكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالا ، وتغيراً وتأثراً ، واتفقوا أن العبد قادر خالق لأفعاله مستحق عليها الثواب والعقاب ... وقد استهوى هذا المذهب الجاحظ لأنه مبني على العقل ، وتعرّض بسببه للنقد والتجريح والطعن في دينه ، فتعرّض له « البغدادي » في كتابه (الفَرْق بين الفِرق) فثلمه في دينه ، مع أنه كان يربط على الدوام عظمة مخلوقات الله بعظمة الخالق في كل مناسبة ويسبّحه في عظيم صنعه كقوله عن أنثى الحمام وذكره : «**فسبحان من عرفهما وألهمهما وهناهما وجعلهما دلالة لمن استدل ، ومخبراً صادقاً لمن يستخبر ، ذلكم الله رب العالمين** »[12] . فلم يكن الجاحظ مجرداً من الشعور الديني ، بل كان حريصاً على الدين ، يجد أن كتاب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الأوائل .

فلا سبيل الى التشكيك بدينه ، وكانتله آراء معتزلية حتى نسبت اليه فرقة باسمه عرفت بالجاحظية . ولعلّ أكثر ما عيب عليه نقده لآراء بعض المفسرين الذين خالفوا في تفسيرهم العقل وخرجوا عن حدود اللغة ، وكشفوا عن جهلهم ، كما عاب عليهم اكتفاءهم بالتفسير دون التعليل والبرهان، من ذلك ذهاب بعضهم الى أن التين والزيتون في القرآن يقصد بهما دمشق وفلسطين ، وتفسيرهم رؤوس الشياطين بأنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، وزعمهم أن في النحل أنبياء لقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً » .

★ ★ ★

الضحك والتهكم عند الجاحظ :

يرى « شفيق جبري » أن الجاحظ من كبار الكتّاب الساخرين ويشبهه بفولتير، فهو مولع بالضحك والاضحاك، وهذا دليل على تفاؤله بالحياة ، وإن كانت الآلام في آخر عمره قد أضعفت ذلك الجانب من طبعه ، وهو يحمل قرّاءه على الضحك من وقار الفكر في كتبه بالفكاهة والسخرية ، ويُعنى بتنويع مادة الكتاب والخروج من باب إلى باب دفعاً للسأم يقول في كتابه «البخلاء»: « ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرّف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت في ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد . »[١٣] . والجاحظ مطبوع على الهزل حتى ليهزل من نفسه ، فهو يروي نادرة عن امرأة أرادت أن يرسم لها الصائغ صورة الشيطان ، فقادت الجاحظ إلى الصائغ وقالت له : مثل هذا !: ويتحدث عمّا أصابه من ذبان البصرة ، ويجمع نوادر المعلمين والبخلاء والحمقى، وتحضره النادرة في مواقف لا يتجرأ سواه على التندر بين يدي الأمراء وسراة القوم ، وتهكمه لاذع يدسّه دساً دون أن يظهر على بيانه ، وهو في كتابه (التربيع والتدوير) يخرج بالتهكم إلى آفاق فنية راقية ، فيتلاعب بشخصية المهجو طولاً وعرضاً وتصغيراً وكأنما يرسمه رسماً كاريكاتورياً يقول في مهجوه : وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟؟ وهل تصرف الاشارة إلا إليك ؟؟ وأي أمرك ليس بغاية ؟ وأي شيء منك ليس في النهاية ؟ وهل فيك شيء يفوق شيئاً ، أو يفوقه شيء ؟ »[١٤] .

النقد عند الجاحظ :

كان الجاحظ يحكّم عقله في نقده، ولذلك شكك في كثير من مواطن التوليد والنحل في الأدب : « لقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أرجازاً كثيرة ، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء ؟ »[١٥] وكان شكّه منطلقاً للتشكيك بصحة الأدب الجاهلي في عصرنا، إلا أنه كانت تنقصه الوسائل للدلالة على نسبة بعض الشعر أو الخطب ونحلها، وإنما كان يعتمد على حدسه ، دون أن يستدل على ذلك بدراسة الأساليب ، وإن كان أحياناً قد لجأ إلى هذا المنهج حين أنكر نسبه بيت « الأفوه الأودي » إليه :

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

فاستدل على أنه ليس له ، لأن (الأفوه) لم يكن يعرف أن الشهب التي يراها هي قذف ورجم ، فلا يدّعي ذلك إلا مسلم قرأ الكتاب . وهو يعنى في نقده بالصنعة ، ويميل إلى استحسان اللفظ لأن المعاني في نظره مطروحة في الطريق ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته . ورأيه هذا يلتقي آراء النقاد المعاصرين في الشعر ومنهم فولتير وأناتول فرانس الذي يقول : « ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه ، وإنما هو ملك الذي يثبته في الأذهان »[١٦] وكان الجاحظ يستحسن وصف الذباب في شعر عنترة لجودة ألفاظه وواقعية وصفه، وإعطاء الكلمة حقها من التبيين ، لكنه كان يؤمن أن لكل عصر ألفاظه وأطواره الأدبية ، ولذلك يبدي إعجابه بالمحدثين من أمثال : بشار وأبي نواس مسايرة للتطور ، إلى جانب إعجابه بالقدامى .

* * *

مذهب الجاحظ في الأدب :

والجاحظ في نظر « شفيق جبري » من أصحاب الأدب المجرّد ، فهو يصور لنا الحقائق عارية دون تعفف أو تستر ، ويريد « جبري » بالأدب المجرد النزعة الواقعية التي تروي الحقائق مريحة دون مراعاة للأدب الاجتماعي أو الذوق العام، ولذلك نراه ينقل كلام الأعراب أو عامة الناس بنصّه ، ولا يتورع عن ذكر أمور

جنسية صريحة ، بلون من الحرية في التصوير والتعبير ، يقول في ذلك : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح ، والكناية في موضع الكناية ... »[١٧] وهذه الواقعية تعني أن لكل مقام مقالاً ...

والجاحظ يميل إلى تهذيب اللفظ وتنقيحه ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه »[١٨] . وهو يرى مشاكلة اللفظ للمعنى ، ليخرج من سماجة الاستكراه وفساد التكلف ، فكان أكبر همه انتخاب اللفظ النبيه الشريف ، واجتناب اللفظ الهجين الرديء . » وحشر في البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيىء المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر المعنى إليه جراً » وذلك يعني أن الألفاظ يجب أن تطلب بحد ذاتها ، وإنما في إطار المعنى المراد ، فبين اللفظ والمعنى عند الجاحظ علاقة صميمية .

* * *

التفكير عند الجاحظ :

يرى « شفيق جبري » أن فكر الجاحظ يعكس ثقافته الموسوعية ، وقد نجد لديه أفكاراً تفرض التوقف عندها ، وهي خليقة بالدراسة بل يصلح بعضها من حيث شمولها وعمقها أن يكون مادة موسوعية ، مثلما يمتاز بتقليب الفكرة من جميع وجوهها فهو يطرح الشيء ونقيضه ، ويبرهن عن استقصاء كامل للموضوع الذي يعالجه ، دون إملال القارىء حتى ليدعو في بعض ما كتب الى عدم التقصير بحقوق المرأة والأمهات والأبناء ، وهي أفكار عصرية تماماً . وله تحليل عميق في أسباب الصراع الانساني والعداوات بين الناس ، وللحسد وعلاجه ، وله آراء وجيهة في التربية والتعليم وردت في كتابه في المعلمين ، وله آراء في الطبيعة والعلوم ، وإن كانت آراؤه الاجتماعية أسلم وأصوب ، ولا تقلّ آراؤه في اللغة أهمية عن آرائه في جوانب العلم الأخرى ، حتى لتعد بعض آرائه في البيان والتبيين أساساً للدراسات اللسانية المعاصرة ، مما يدل على سعة علمه ونبوغه وقدرته الابداعية .

الفن الأدبي عند الجاحظ :

يقوم فن الجاحظ الأدبي على مبدأ لكل مقام مقال ،وقد أحب الجاحظ الحياة فصوّر جوانبها في كتبه أجلّ تصوير بلون من الواقعية ، وتعلّق بحرية التعبير وإرسال الكلام على طبيعته دون تكلف ·وهو في أدبه العقلي قليل التصوير ، بعيد عن الصنعة والخيال ، وصوره القليلة يقصد منها التوضيح لا التزيين، كتشبيهه رتل الذرّ بالخيط الأسود المحدود ، أو تشبيه الموصوف بأشخاص معروفين ، فأسلوبه أقرب إلى أسلوب العلماء الذين يعتمدون العقل ويجرون وراء الفكرة ، من دون أن يبذل جهوداًفي ترتيب أفكاره، فهو مولع بالاستطراد، يداخل بين الموضوعات ويطلق لفكره حرية التجول دون ضابط ، ويعود ذلك إلى اتساع أفقه وغزارة معلوماته ،وهو يبحث عن الحقيقة ورسم الواقع أكثر مما يبحث عن الزينة اللفظية في أسلوبه الأدبي كقوله في وصف قاضي البصرة : « لم ير الناس حاكماً قط زميتاً ، ولا ركيناً ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه وملك حركته مثل الذي ضبط وملك ، وكان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ، ولا يتكيء ، فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولايحلّ حبوته ، ولا يحلّ رِجلاً على رجلٍ ، ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة »[١٩]، وهذا هو التصوير الواقعي الدقيق الذي لا تزيّد فيه ، وإنما ينطق بالحقيقة ، ويختار لتجسيدها أدق الألفاظ ، فالجاحظ مصور واقعي ، يعمد أحياناً لتكرير اللفظ على سبيل التأكيد ، وقد تتموج عبارته فتنبسط وتمتد ، حتى تغيب في الذهن ، أو يقطعها تقطيعاً موسيقياً بما يحشد لها من عناصر الترادف والتوازن كقوله في وصف الكتاب :

« اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن · كما نعوذ بك من العجب بما نحسن »[٢٠] وفي ذلك ضرب من الايقاع يبعث على الراحة ·

* * *

تلك هي صورة الجاحظ تحت مجهر «شفيق جبري» ، وهي صورة حيّة ناطقة ، ليس فيها تزيّد ولا مبالغة ، ولا قصور في جوانبها ، ساعده على رسمها منهج سليم في الدراسة الأدبية ، واحاطة شاملة بجوانب الموضوع ، وثقافة نقدية تراثية ومحدثة لم تتوافر لكثير من دارسي الأدب ، وفوق ذلك كله أثر ذوق « شفيق جبري » الأدبي وحسّه المرهف وما يتمتع به من دقة في الملاحظة وقدرة على التحليل ، وأحسب أن صورة الجاحظ التي رسمها « شفيق جبري » ستظل هي الصورة المعتمدة في ترجمة أبي عثمان «الجاحظ» لم يضف اليها دارسوه الآخرون جديداً الا ما كان من قبيل التوسع ، وهذا يدل على إخلاص « شفيق جبري » لفنه الأدبي ،وجهده في تقديم العمل كاملاً قلّ أن تلحظ فيه مطعناً أو عيباً .

★ ★ ★

(★) شفيق جبري ١٨٩٨-١٩٨٠ ، شاعر الشام في النصف الأول من القرن العشرين .. عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعميد كلية الآداب في الجامعة السورية ..

اهتمّ بالدراسات اللغوية والأدبية .. وله مطبوعات عدّة .. منها :

١ ـ الجاحظ معلّم العقل والأدب .
٢ ـ المتنبي ماليء الدنيا وشاغل الناس .
٣ ـ العناصر النفسية في سياسة العرب .
٤ ـ بين البحر والصحراء .
٥ ـ أبو الفرج الأصفهاني .
٦ ـ أرض السحر .
٧ ـ أنا والشعر .
٨ ـ أنا والنثر .

★ ★ ★

☐ الحواشي :

١ ـ الجاحظ معلّم العقل والأدب ـ ص ٢٤ .
٢ ـ المرجع نفسه ـ ص ٣٨ .
٣ ـ المصدر نفسه ـ ص ٤٦ .
٤ ـ المصدر نفسه ـ ص ٧٠ .
٥ ـ المصدر نفسه ـ ص ٨١ .
٦ ـ المصدر نفسه ـ ص ٨٥ .
٧ ـ المرجع نفسه ـ ص ١١٦ .
٨ ـ المرجع نفسه ـ ص ١١٧ .
٩ ـ المرجع نفسه ـ ص ١٢٢ .
١٠ـ المرجع نفسه ـ ص ١٣٧ .
١١ـ المرجع نفسه ـ ص ١٤٤ .
١٢ـ المرجع نفسه ـ ص ١٧٣ .
١٣ـ المرجع نفسه ـ ص ١٨٨ .
١٤ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٠٠ .
١٥ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٠٣ .
١٦ـ المرجع نفسه ـ ص ٢١١ .
١٧ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٢١ .
١٨ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٢٤ .
١٩ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٤١ .
٢٠ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٤٢ .